تجـــربتى التربوية

دكتور زكى نجيب محمود

توطئـــة :

على مدى يقرب من الستين عاما ، ظل ـ وما يزال ـ الدكتور زكى نجيب محمود طاقة فكرية هائلة تمد الثقافة العربية بزاد خصب متعـــدد الجوانب من الفكر ، حتى أصبح علامة على الطريق ·· خلق العالم ·· وعمق الفيلسوف ·· وبراعة الأديب ·· جمع على لسانه وقلمه الثقافتين : العربية، والغربية ، أستاذ جامعى فريد من نوعه التزاما ومنهجا وتعليما ··

ولما كان هو نفسه « نتاج تربية » تعددت عواملها ، كان لابد أن يدفعنا الفضول العلمى الى محاولة استكشاف جوانبها وتبين اتجاهاتها ·· ولاشك أن هذه التجربة (التربوية) عندما تجىء على لسان مفكرنا نفسه ، ولهـذه المجلة خصيصا ·· فان القيمة التاريخية والعلمية والتربوية لهذا العمل الذى بين يدى القارىء لا تحتاج الى دليل ··

حدثته تليفونيا بالفكرة ·· فرحب الرجل بها ·· وذهبت ومعى د· محمد وجيه زكى الصـــاوى ·· وأقول الحـق ، لقد أشفقت على الرجل عندما رأيته لأول مرة منذ سنوات طويلة ·· لقد أجهدته سنوات العمـــر الطويلة ـ مد الله له المزيد منها ـ وأصبح بصره ·· شاحبا الى أدنى حد ·· كان فى المنزل وحيدا حيث لم تكن رفيقة عمره ، د· منيرة حلمى موجـــودة فى ذلك الوقت ··

وبالرغم من كل هذا فقد انطلق الرجل يفيض من علمه وفكره ما يقرب من ساعتين ونصف !!

كانت هذه المقابلة فى يوم الأحد ١٩٨٦/٩/١٤ بدأت الساعة العاشرة صباحا ، وانتهت ما يقرب من الواحدة ظهرا الا قليل ··

انها بداية سلسلة من اللقاءات نرجو أن نقوم فى كل عدد بواحد منها مع واحد من كبار مفكرينا ، من هذه الزاوية التى نخصها بالذات ٠٠ تجربته التربوية ٠٠

« التحـرير »

تلميذا فى التعليـــم العام

ـــ بماذا تميزت به المدرسة الانجليزية (كلية غوردون) التى التحقت بها أثناء فترة عمل الوالد بالسودان عما خبرته من قبل فى مدرسة السـلطان حسين بالقـــاهرة ؟

● أولا ، قبل أن ينتقل الوالد الى حكومة السودان عندئذ ويأخذ أسرته معه ونحن معه كنـا مانزال دون العـــاشرة ، وكان التعليم الذى مارسناه فى القاهرة ومن قبل القاهرة ، فى قريتنا فى محافظة دمياط الآن المدرسة الأولية ٠

لما سافر الوالد وسافرنا معه الى الخرطوم سنة ١٩١٤ ، كان عمرى تسع سنوات وكنت قد فرغت من المدرسة الأولية بالقاهرة التى هى مدرسـة السلطان (مصطفى * ٠٠) فى ميدان السيدة زينب والتى ما تزال قائمـــة الى الآن ، لأننى أذكر أننى منذ بضع سنوات كنت أمر هناك ، وتعمدت المرور عليها فوجدت المبنى قائما ٠٠ انه مبنى أثرى على هيئة سبيل وهو على ناحية حارة الكاشف فى ميدان السيدة زينب ٠

المقارنة بين المدرسة الأولية بالقاهرة وكلية غوردون التى التحقنا بها غير ممكنة لأن المدرسة الأولية ، كانت تتعلق بالأوليات ، أما كلية غوردون، فكانت مركب من مدرسة ابتدائية وأخرى ثانوية فى آن واحد ٠ وكانت هى المدرسة الوحيدة التى يؤمها الطلاب السودانيون من حيثما جاءوا من أقطار السودان ، كانت المدرسة مؤسسة على نظام انجليزى صرف ، يعنى لم تدرس

أنها السلطان مصطفى، وربما كان ذلك لطول العهد ،فهى بالفعل مدرسةالسلطانحسين:
أنها السلطان مصطفى . وكان ذلك لطول العهد . فهى بالفعل مدرسة السالطان حسين٠

بالعربية الا دروس اللغة العربية ثم كانت هنالك فروق كبيرة جدا وبين ما أعرفه عن المدارس الابتدائية والثانوية فى مصر ٠٠ كان هنالك اهتمام شديد بما نسميه اليوم (بدروس الأشغال) أو دروس المعلومات العامة ٠٠ لأن دروس الأشغال هذه كانت تدرس لنا فى مدرسة الصنائع ، وكانت هناك أيضا مدرسة صنائع ضمن المركب التعليمى المسمى بكلية غورديون ٠٠

كان هنالك درسان ٠٠ ساعتان فى كل أسبوع نقضيهما فى مدرسة الصنائع نتعلم الحرف المختلفة ، النجارة فى مقرر ، الحدادة فى مقرر ، الكهرباء فى مقرر ٠٠ وهكذا والامتحان يكون فى فصل النجارة فى مقرر النجارة : اعمل منضدة ، مقاييسها كذا وكذا ٠٠ الى هذا الحد ، هذا جانب عملى صرف ، وأعتقد أنه كان مفيدا ومرحا مثل هذا غير موجود ٠٠

- ونحن فى حاجة اليه ٠٠

● لا ادرى اذا كنا فى حاجة اليه أم لا ،

مظهر آخر فى المقارنة أو هو سلبى ، تجنب تعليم أى مادة تغرس الشعور القومى فى النفوس ، فالتاريخ كان لا يكاد يعطى منه شيئا ، وكذلك دروس التربية الوطنية التى تبث عادة لغرس وتنمية هذا الشعور ، لم يكن هناك منها شىء ٠٠

الألعاب الرياضية ، كانت تنافس ، ان لم تكن أفضل من دروس المواد فكان كل تلاميذ المدرسة يقسمون الى درجات فى لعبة كرة القدم - مثلا - لا يفر واحد ، لأن المسألة لم تقم على الاختيار ٠٠

وكنا ندرس اللغة العربية ، واللغة الانجليزية ، والجغرافيا ٠٠ وهكذا وكنا نلعب الكرة أقساما ، ولها حضور وغياب ٠

قسمت كلية غوردون الى أربعة بيوت أو ما نسميه هنا (الأسر) ثلاثة بيوت منها للطلاب الآتين من أقسام السودان المختلفة ، شرق السودان وغرب السودان ، وجنوبه ٠٠ وكنا نحن فى البيت الرابع ، التلاميذ (الخارجية)

هؤلاء أصحاب الأقسام الثلاثة ، كانوا (داخلية) عكسنا ، وحتى ونحن (خارجية) كانت تقرر علينا ألعاب نلعبها فى العصر ، وبها حضور وغياب، ولها رئيس علينا ولها أيام مخصوصة ·· هناك فى ساحة كبيرة فى المدينة ··

مثل هذا لا أعتقد أنه وجد فى المدرسة المصرية ، ولا أدرى أيضا اذا كان من الخير أم لا أن يبالغ فى هذا الجانب ··

ولأمر ما ، كان التلاميذ هناك أيامنا يقرءون قراءات خاصة فى الأدب العربى القديم ، الشعر العربى ، المعلقات وغيرها ، كنا مضطرين حتى ولو لم يكن فينا الرغبة الطبيعية فى أن نحفظ الشعر ونقرأ الكتب ونأتى لنناقش الآخرين فيما قرأناها ·· كنا مضطرين أن نساير هؤلاء ·· فعادة القراءة وبخاصة الأدب ، وبخاصة الخاصة قراءة الشعر وحفظه ·

— كان هذا تعبيرا عن اهتمامات خاصـــة ، أم جـــزءا من نظام الدراســـة ؟

● لا لم يكن جزءا من نظام الدراسة ·· هذه كلها وضعت فينا بذور ·· وربما ظل هذا معنا الى الآن ··

ثم لا ننسى النظام الدقيق جدا جدا فى المواعيد وفى الثواب والعقاب ، وهذا من مكونات الشخصية بالضرورة ·· لكن لا أدرى بالنسبة للمجمـوع الكلى لحاصل هذا النـــوع من التعليم هل كان فى صـــالحى أو فى غير صالحى ربما تحتاج المسألة الى تحليل علمى دقيق ·· فربما كان اندفاعى الى القراءة والى التحصيل فيما بعد نتيجة من النتائج ·· وربما اهتمامى بالأدب ولو أنى لم أدرسه واهتمامى بالشعر ولو أنى لست شاعرا ·· يجوز كل ذلك بقيمة من المناخ العام فى هذه المدرسة ·· فلابد أن يكون لها تأثير ·· فمثلا اهتمامى بدقة المواعيد الى الآن ·· لا أذكر يوما واحدا تقريبا بلا مبالغة ، أفلت منى موعد ولو بدقيقة واحدة ·· لقد درست ما يزيد على خمسين سنة ·· لا أذكر أن تأخرت مرة واحدة دقيقة واحدة ·· فى احـدى المحاضرات ، بل بالعكس ·· كنت أذهب قبل المحاضرة دائما ، ثم انتظر الطلاب

من يدرى ويجوز جدا أن يكون هذا نتيجة لتربيتى (الأسرية) من جهة ، ومن جهة أخرى نتيجة للمدرسة ..

على كل حال أترك المسألة بعدئذ من حيث التقـــويم ، هل هى فى الحصـــلة النهائية خير أو خير منقوص .. ؟

كيف جمعت بين الثقافتين ؟

— ان هذا يجعلنا نناقش معكم تلك الملحوظة التى تبدو واضـــحة لكل من تابع انتاجكم الفكرى ، ألا وهى امتلاككم لناحيتى الثقافة العربية والثقافة الغربية فى آن واحد .. ان الذى يقرأ لكم يحسب أنه يقرأ لأستاذ من الدرجة الأولى فى اللغة العربية وفى الأدب (العربى) هذا على الرغم ممـــا عرفناه من أن تعليمكم الابتدائى وجزءا من الثانوى كان فى عقر دار الثقافة الانجليزية فى كلية غوردون ، وكذلك الأمر حيث انهيتم المرحلة الأخيـــرة فى البعثة فى قلب الثقافة الانجليزية فى لندن .. هل كان للتعليم أثر عليك فى ذلك ؟

● أنا ممن تأثروا — الى جانب المدرسة — بل ربما وأقوى جدا مما تأثرت به فى التعليم المنظم بالمدرسة ، من الحياة الثقافية العامة ، والاندفاع الى القراءة . فأنا لو سئلت : من هم الأساتذة الذين تأثرت بهم ؟ يصعب على جدا أن أذكر اسما واحدا ، بث فى شيئا من اهتماماتى الحقيقية ، ولكن الواقع الذى حدث ، هو أننا لما فرغنا من الدراسة فى كلية غوردون ، طبعا اضطررنا الى العودة الى مصر ، جئنا واللغة الانجليزية والقراءة بها ميسرة جدا .. جدا ، ثم جئنا حيث العشر سنوات التى أعدها سنوات النهضـــة الثقافية الحقيقية فى مصر وهى العشرينات ، بعد ثورة ١٩١٩ مباشرة الى الثلاثينات ودخولا فيها .. الى أن قامت الحرب العالمية الثانية ..

هذا الثلاثى : لطفى السيد ، وشوقى ، وحافظ ابراهيم ، وطه حسين ، والعقاد ، والمازنى ، وعلى عبد الرازق وأحمد حسن الزيات ، وســـلامة موسى .. ومصطفى عبد الرازق .. هذا الرعيل ، كان يصطخب به الجو الثقافى الى درجة لا مثيل لها .. لماذا ؟ لأنه بالطبع قبل ثورة ١٩١٩ ، كانت

هناك العوامل التى ستؤدى اليها بادئة من محمد عبده ، قاسم أمين ، عبد الله النديم ٠٠ الخ ٠ فهذا عهد كانت له قوته بالطبع لم نعشه نحن ٠٠ فلماذا فجرت ثورة ١٩١٩ ، كنتيجة للمد الثقافى والانشار الثقافى الذى امتد من بداية الاحتلال سنة ١٨٨٢ الى ١٩١٩ ، بدأنا نحن نتلقى ٠ نتلقى ممن ؟ من هؤلاء ٠٠

ثورة ١٩١٩ ، كانت ثورة سياسية ، ولكن لم يمض زمن حتى تفجرت منها عدة ثورات فى كل منحى وفى كل اتجاه من اتجاهات الحياة ، ثـورة فى الاقتصاد ٠٠ ثورة فى الفن التشكيلى ، ثورة فى النقد الأدبى ٠٠ الخ ٠٠ فى سنة ١٩١٩ كانت الثورة أو فى سنة ١٩٢٠ ، كان سيد درويش بموسيقاه الجديدة ، وكان طلعت حرب ببنك مصر ، وكان العقاد والمازنى بالنقد الأدبى الجديد ، محمود مختار بالفن الجديد ٠٠ وكذلك محمود سعيد ، وعلى عبد الرازق بالرؤية الجديدة للاسلام وأصول الحكم ٠٠ طه حسين بالرؤية الجديدة فى النقد الأدبى الجديد فى كتابه الأدب الجاهلى الذى كان اسمه (فى الشعر الجاهلى) ثم عدل ٠٠ أحمد شوقى الشاعر بمسرحياته الشعرية فلاول مرة تعرف اللغة العربية شيئا اسمه المسرح الشعرى ٠٠ وتوفيق الحكيم بمسرحيته النثرية ٠٠ أهل الكهف ٠٠ هذه المسرحيات كانت مسبوقة بمسرحيات عادية. لكن أهمية هذه المسرحيات أنها كتبت بحيث تصبح جزءا من الأدب العربى ٠٠ اذ لم يكن أحد ليؤرخ للمسرحيات السابقة ممصرة أو غير ممصرة التى كانت تمثل فى روض الفرج ، وفى غير روض الفرج ٠٠ يؤمها الجمهور ، لكنها لم تكن جزءا من الأدب ٠٠ أما المسرحيات التى أشير اليها ، فلاول مرة تصبح جزءا من الأدب العربى ٠٠ شعرا على يد شوقى ونثرا على يد توفيق الحكيم ٠

هذه كلها تدلنا على أن المسألة لم تكن مسألة كتاب يكتبون ٠٠ ولـكن الكتاب يكتبون ليدقوا طرقا جديدة فى حياتنا الثقافية ٠٠ يكاد لا يمضى عام الا وهناك كتاب يشق طريقا جديدا ٠٠ على سبيل الثورة الفكرية أو الفنية فى هذا الطريق ٠٠ فنحن كنا فى هذا المعمعان ـ ونحن فى صدر الشباب مزودين بالاندفاع نحو القراءة ٠٠ وأنا أقولها دائما ، لا أظن أن واحدا من هؤلاء قد كتب صفحة واحدة ، ولم أقرأها ٠٠ هذا التتبع أعطانا نماذج : كيف نريد أن نكون فى المستقبل ٠٠ هذه نقطة مهمة جدا جدا فى تكوين الانسان ٠٠ ليست النقطة هنا أن أحاكى فلانا أو علانا ٠٠ كلا من هو المثل

الأعلى ؟ الى أين نسير ؟ فكان يمكن أن يكون هناك سياسيين ثائرين ياخذون بمناصب الوزارة فأتعلق بالوزارة ، أى بفكرة أن أكون وزيرا ٠٠ أن أكون من رجال السياسة ٠٠

كان هناك اقتصاد جديد على يد طلعت حرب ، ومشروعات ، وأموال فى مصطرع الحياة الجديدة ، فربما يتعلق خيالى بالمثل الأعلى بأن أكون غنيا ٠٠ وهكذا ولكن ، لأمر ما ، ما دام السلاح الذى عندى أن أقرأ ٠٠ وما دام هؤلاء هم الذين يقرأ لهم عندئذ ، فقد تعلق خيالى بمثل أعلى من هذا القبيل ٠٠ وهذه فى نظرى من أهم المهام على المربى ، سواء كان والدا ، أو كان معلما ٠٠ أن يحاول ربط ما عند الناشىء المتعلم من اتجاهات ، بمثل أعلى يتعلق به ٠٠ والا يجيىء السيف تائها فى خلاء ٠٠ أنا أتذكر تماما أن طه حسين والعقاد ، ومن اليهم رسموا لى : ما أريد أن أكون ؟٠٠ وعندى ٠٠ لا أقول الموهبة ٠٠ ولكن الرغبة فى القراءة فقط فالأسلحة اذن وجدت ٠٠

ولمعرفتى بالانجليزية ، وحبى للقراءة ، لم أقتصر على قراءة ما يكتبه الكتاب العرب ، وانما تعلقت بكثير مما كان يكتبه الكتاب الانجليز عندئذ ، وبعد ذلك أيضا ٠٠

وفى انجلترا ، كان هناك فريق من الكتاب والمفكرين تفخر به الحركة الفكرية فى انجلترا حتى اليوم ، وكانوا يسمون أنفسهم Bloom Sburg نسبة الى اسم الشارع المجاور للمتحف البريطانى ٠٠ فى هذا الشارع ، كان لهم نادى يلتقون فيه ٠٠ من هم ؟ معظم الأسماء اللامعة التى نسمع عنها : برتراند رسل ، هـ ٠ ج ٠ ويلز ، برنادشو ، بن ٠٠ الخ ٠٠ هؤلاء الناس هم الفكر الانجليزى فى ثورته من القرن التاسع عشر الى العشرين ٠٠ القرن التاسع عشر فى انجلترا يسمى الى الآن فى كتب الأدب وفى كتب التاريخ (العصر الفكتورى) ٠٠٠ لماذا وسم بهذه السمة ؟٠٠ لأنه كان ذا طابع غريب ٠ طابع التمسك الشديد جدا بالمظاهر ، حتى ولو خالفت هذه المظاهر حقائق الأشياء من الداخل ٠٠ شاع فيها : النفاق الاجتماعى ٠٠ عليك أن تظهر بملابس معينة ، تحيى بطريقة معينة ، تتنحى للسيدات فى الطريق ٠٠ هذه الشكليات انتشرت حتى عقدت الحياة ، وجعلت لها طابعا معينا ٠٠ لكن كان لابد من الثورة عليه ٠٠

لاحظ أن الحرب العالمية الأولى كانت بابا مغلقا من الناحية الحضارية ثم انفتح ٠٠ لأن التجديد الحقيقى جاء منذ هذه الحرب خروجا من الجمود الحضارى الذى أقصد به التمسك بالشكليات الى أقصى حد ٠٠ وحتى ولو كان اللب ضحيحا ٠٠

القرن التاسع عشر يجب ألا تتركه هكذا حتى لا يظن القارىء أنى أحط من شأنه ٠٠ أبدا ٠٠ هذا القرن موقعه الاستراتيجى فى الفكر العالمى من أروع ما يمكن ، ومن أغرب ما يمكن ٠٠ لأنه هو القرن الذى أفرزت فيه الأفكار الكبيرة جدا ، والتى تركت للقرن العشرين لكى يبسطها ويشرحها ويهضمها وهو حتى يومنا هذا ، ما زال يؤدى هذه العملية ٠٠

القرن العشرين لم يفرز ٠٠ ولا فكرة كبيرة واحدة يعيشها الناس ٠٠

هناك أربع أفكار بصفة خاصة أفرزت فى القرن التاسع عشر ، وأفرزت ولم يكن هناك وقت للحضارة أو الثقافة الجديدة أن تهضمها ٠٠ أى تحولها من الشك الى اللاشعور ٠٠ أى من كونها وعيا الى كونها سلوكا معتادا ٠٠ وهذا هو التحول الحضارى ، أن يتحول ما هو وعى الى لا وعى لبيئة الناس وهم لا يشعرون أنهم قد تجددوا ٠

أول الأفكار الأربع ، هى فكرة التطور ، هذه الفكرة مكروهة عند الرأى العام عندما ٠٠ دائما يذكرون على أساسها ٠٠ التطور أن الانسان أصله قرد ٠٠ الخ وكل هذا تخريف فى تخريف ٠٠ ولكن التطور هذا فكرة ٠ واملاها انت بأى مادة تريد ٠٠ وبالفعل فكرة التطور عند داروين دخلت عليها تعديلات كثيرة ٠٠ هذا لا يهم ٠٠ ومن الناحية الفلسفية أيضا ، فكرة التطور بنيت على أساسها فلسفات كثيرة فى القرن العشرين ، لا شأن لها أبدا بالتطور البيولوجى الذى يتصل بالقرد وما الى ذلك، وانما تطور الكون٠٠ ثم المراحل الثقافة تطور الديانات ، تطور نظم الحكم ٠٠ وهكذا أصبح منهجا أصبح كل أستاذ جامعى يستشعر أهميته بحيث تجد أنه عندما يدرس موضوعا ، فالخطوة الأولى التى لابد أن يقوم بها ، هى أن ينظر اليه على أنه أطوار ٠٠ أى يسرد المراحل التى سار بها لم يكن هكذا الأمر بهذا الوضوح ٠٠ لكن فكرة التطور انبثت فى عقولنا حتى أصبحت منهج تناول لأى فكرة أريد أن

أبسطها وأشرحها ·· لابد من معرفة : كيف تطورت حتى وصلت الى المرحلة الراهنة ··

فكرة التطور هذه ، تجد أننا بسبب ضحالتنا الثقافية نأخذها بما أثير حولها من اشاعات فنرفضها دون تريث ·· فنلعنها ونلقى بها فى سلة المهملات ·· انها فكرة كبيرة جدا ·· أذكر تفريعة واحدة فقط منها كى يعرف القارىء ما أهمية أن تحتل فكرة التطور مركز السيادة فى المناخ الفكرى ، الا لأنها غير مسبوقة فى الماضى ·· أبدا انها مسبوقة ، ولكن هناك فرق بعيد جدا بين فكرة تأتى وتذهب عابرة ، وبين فكرة تضرب بجذورها فى الأرض لتكون هى العمود الذى ترتكز عليه أو بين العمد التى ترتكز عليها الحياة الثقافية ·· فالتطور فكرة تفرعت عنها أولوية التاريخ فى فهمنا للاشياء ··

لكى تفهم المناخ الثقافى فى عصر من العصور ، يحسن أن تبحث عن العلم الأساسى الذى طرح تصوره على الناس ليكون مفتاحا ·· أحيانا العلم الأساسى ·· مثلا ، خذ أفلاطون وأرسطو فى الثقافة اليونانية القديمة ·· هذان كانا عملاقين فى الحياة الفكرية اليونانية التى هى أصل أصيل للثقافة فى أوربا حتى اليوم ·· ولثقافتنا نسبيا ، لأن العرب الأسلاف أخذوهما ، وسكبوهما فى شرايين الثقافة العربية ·· من حيث لا ندرى · أصبحا فى الشعر العربى ، وفى النحو العربى ·· الخ ·

المهم ·· هما فى حياة واحدة ، ولكن أفلاطون سبق أرسطو ·· وجاء أرسطو ليطور ·· ليكون بداية انتقال الى عهد جديد بعد اليونان ·· فى الاسكندرية القديمة عندنا ·· كيف حدث هذا ؟

أفلاطون جعل المفتاح الذى يفكر على أساسه هو : الرياضة والهندسة بصفة خاصة ، ولذلك كتب على الأكاديمية : من لم يدرس الهندسة فلا مكان له هنا ·· لماذا ؟ لأنه يريد أن يعتمد على (الاستنباط) أساسا ·· على أن تكون هناك فكرة (أم) نعثر عليها ونجعلها المبدأ الأول ، ثم نعتصر منها الأفكار الفرعية ، فاذا بنا أمام النسق الفكرى كله ·· هذه طريقته ·· الفكرة الأم هذه يجب أن نتصورها رياضيا ·· لا حركة فيها ·· كما نتصور

٢ + ٣ = ٥ أو كما تتصور حقيقة المثلث ٠٠ أنت لا تتصور حياة ٠٠ تتطور ٠٠ أنت تتصور حياة تثبت ٠٠ صورة خالدة ، يتغير الزمن ولا تتغير ٠٠ تتغير الحضارات ولا تتغير ٠٠ تتغير الأكوان ولا تتغير ٠٠ الحقيقة الرياضية ٠

من هنا جعل أفلاطون المثل التى نترجمها هكذا بالعربية وان كنت لا أدرى لماذا ترجمناها هكذا ، فهى ترجمة خاطئة لأنها بالانجليزية ideas وليس ideals أفكار نموذجية ٠٠ أفكار لها ثبات وخلود ٠٠ أفكار رياضية ، حتى بعد ذلك عندما أستولد منها نتائجها ، تكون هذه النتائج صحيحة ٠ بمقدار ما تكون مقتربة من هذا النموذج ٠٠ اذن لابد أن تكون رياضى المنهج ، هندسى المنهج ، مثل اقليدس عندما ولد نظرياته الهندسية من مقدمات ٠

لما جاء ارسطو لم يعجبه هذا المفتاح ٠٠ وأخذ الـ Biology مفتاحا يفهم به الفكر ، فالفكر ليس بهذا الثبات ٠٠ الفكر فيه تطور ٠٠ كيف؟ كما تنمو الشجرة ٠٠ الشجرة أحوال ٠٠ والطائر أحوال ٠٠ والآدمى أحوال ٠٠ تطورات تصنع الانسان وغيره ٠٠ اذن حقيقة الانسان ، تاريخه اذن ، فما الموقف من الحقائق الرياضية ؟ هل تترك ؟ كلا انه قسم المعرفة الى شقين : شق فيه التعاريف : تعريف الحصان وتعريف الطائر ٠٠ الخ هذه التعاريف ثابتة ٠٠ ولكن هذه التعاريف ليست رياضية ، بل هى بيولوجية لأنك تضع فى تعريف الشىء : الوظيفة ، ولا تضع فيه التكوين ٠٠

ان الفرق كبير بين أن تصف قيثارة كيف بنيت ؟ وبين أن تشير الى وظيفتها كباعثة أنغام ٠٠ بالانجليزية ، الكلمتين الفرق بينهما أوضح functions structure ٠٠٠ الآدمى منا له (بنية) التى تتمثل فى (السقالات) ٠٠ الهيكل العظمى ٠٠ أشبه بالهيكل المسلح الذى تقدم عليه العمارات ٠٠ ثم بعد ذلك تملا هذا الهيكل بما تريد ٠٠ هو شقق ٠٠ دكاكين ٠٠ جراج ٠٠ فالانسان cture ثم تأتى الوظيفة ولذلك يقولون ٠ هل الذراع اذا شلت تصبح ذراعا ؟ كلا لو وضعت مكانها ذراع جديد يتحرك ٠٠ ذراع صناعى ٠٠ هنا ينطبق عليه تعريف الذراع (بالوظيفة) أكثر مما ينطبق على ذراع الانسان الطبيعى عندما يكون مشلولا ٠٠ المسألة وظيفة ٠٠

هذه الرؤية التى تجعل حقيقة الشىء تاريخه ٠٠ أطواره ٠٠ كانت أفكارا غابرة فيما مضى لكنها رسخت الآن فى عصرنا لتكون من أقوى العمد التى تستند عليها ثقافة العصر ٠٠ ومن هنا تأتى قضية التغير ٠٠ التغير والثبات شغلا العقل طوال حياته : هل تنشد ما هو ثابت : أم تنشد التغير ؟ كـــلا الأمرين ٠٠ ولكن الذى ينشد ما هو ثابت ، ويقذف فى البحر ما هو متغير ٠٠ يبقى يبقى لا ينوى أن يعيش ٠٠ هذه المتغيرات جاءت ؟ جاءت لتكون الوظيفة لهيكل الثبات كل هذه التفريعات جاءت نتيجة لفكرة التطور اذا كانت هى عمود فقرى للحياة الثقافية ، وهى أحد العمد الأربعة ، أى الأفكار الأربعة التى أفرزها القرن ١٩ ولا نزال نعيشها ٠٠ حتى يومنا هذا بالطبع ٠

الفكرة الثانية ، **فكرة ماركس** ٠٠ هذه الفكرة بنيت على فلسفة هيجل ٠٠ لا يهمنى ما اذا كانت هذه الفكرة صواب أو خطأ ، وانما يهمنى أنهـا شغلت العالم ولاتزال تشغله ٠٠٠ وفكرة التطور ، وفكرة ماركس عن المادية الجدلية أفرزتا فى أواسط القرن ١٩ ، بعد ذلك بقليل جدا ، جاءت **فكرة فرويد**، كان معاصرا لهما ٠٠ نظر فرويد للانسان نظرة جديدة جدا ٠٠

كان العالم كله ٠٠ منذ أرسطو الى وقت قريب تعريف الانسان بأنه حيوان ناطق ٠٠ أى اذا سألت : بماذا يتميز الانسان ؟ فتكون الاجابة : بعقله ٠٠ لكن ما هو العقل ؟ فى نظر أرسطو هو التفكير المنطقى بالاستنباط وقواعده التى نعرفها من المنطق ٠٠ فلما جاء فرويد ، انفتح له باب جديد ، العقـل موجود ٠٠ نعم ، لكن : هل هو الموجه ؟ أم هو الخادم ؟ الموجه ليس هو ، انما المطلوب منه أن يخدم ٠٠ يخدم ماذا ؟ الطريق الذى يريده الانسان ٠٠ وكيف يريده ؟ يريده بعقله الباطن ، حتى ولو لم يكن على وعى به ٠٠ ان العقل الباطن هو (الدفة) التى تسير مركب الانسان وهو لا يدرى ٠٠ لكن ما وظيفة العقل بالمعنى المعروف ٠٠ العقل الظاهر ٠٠ ان العقل الباطن هو الذى يضع الهدف لأنه هو الذى يكون الارادة ، الارادة ليست كلمة ٠٠ انها اتجاه نحو فعل معين ٠٠ افرض أننى أرغب السفر الى الاسكندرية ، لو تركت العقل الباطن وحده ، فسأظل جالسا على الكرسى ٠٠ سيظل العقل الباطن (يرغب) فى أن يذهب الى الاسكندرية ٠٠ فيجىء العقل الواعى ليرسم له الخطة ٠٠ تستطيع أن تذهب بالسيارة على الطريق الزراعى أو الصحراوى أو بالقطار

.. الخ .. والسيارة هنا التى صنعها هذا العقل .. والطريق هو أيضا الذى رصفه .. وهكذا ..

اذن الوسائل التى تحقق للرغبة أو الارادة ما تشعر به ، يقوم بها العقل الناطق بالتعريف الأرسطى ، لكن ليس هو الانسان فى حقيقته التى تريد ، وحقيقة الانسان ارادة قبل أن تكون عقلا ، لأن العقل يأتى ليرسم الطريقة أمام الانسان ..

ولحسن الحظ أن الاسلام يرى هذا .. وأنا تنبهت لذلك تنبهت لها من خلال الفيلسوف الانجليزى (هوايتهد) ذكر هذا .. فالاسلام يجعل الأولوية للارادة ، وتأتى بعد ذلك الصفات الأخرى لتخدم الارادة ، فالارادة خلق .. ابداع .. انها هى التى تجعل الانسان مسئولا ، وليس عقله ، لأننى لو سرت - مثلا - من أول حياتى لآخرها حياة عقلية صرف .. فلن أكون مسئولا عن شىء ، لأن الطريق الرياضى الذى يسير عليه العقل خطوات تنبسط بعضها من بعض بقواعد فطرية فى الانسان ، ولا فضل لى ، كل المطلوب أن تكون لدى القدرة على هذا .. أما الارادة ، ففيها شخصية الانسان ، تريد (أ) أو تريد (ب) ، ومن ثم فأنت مسئولا عن اختيارك .. فالارادة لها أولوية .. وبالتالى ، فالرغبة التى تلبس لبوس الارادة ، أو ما يسمى بالعقل الباطن أو اللاشعور .. هذا كشف .. لو وقف عند حد ذاته لأصبحت فكرة عابرة .. لكنها انتقلت لتصبح منهجا .. وهذا هو الذى جعلها ركيزة أساسية ن ركائز هذا العصر .. خذ الأدب كله .. شعرا ورواية ومسرحية ، وخذ النقد الأدبى والنقد الفنى ، وانظر كم تأثر بفكره أن الانسان منبعث فيما يبدعه عن عقله الباطن .. هذا لم يكن يتنبه اليه أحد .. مثلا لو أخذنا نقاد العرب الأقدمين وأنا طبعا أعدهم نقادا من الدرجة الأولى التى شهدها النقد .. ولكن على كل حال لم يكن يطرأ على باله بأى حال من الأحوال ، أن يبحث فى القصيدة عن نفسية الشاعر .. هذا لم يرد الى ذهنه ، فاذا جاء رجل كالعقاد ليقول ان ابن الرومى من شعره ، فى الكتاب المشهور له بهذا العنوان، ليحلل شعر ابن الرومى متعقبا فى شعره ليدل على نفسية ابن الرومى وكيف ركبت .. فهذا نقد جديد مبنى على فكرة جديدة ، أن الانسان صادر فيما يبدعه عن عقله الباطن ..

الفكرة الرابعة ، هى فكرة أينشتين ٠٠ انها لم تكن مجرد فكرة رياضية جديدة ، وانما كانت رؤية جديدة للكون ٠٠ لو كنا ما نزال على رؤية نيوتن لما استطعنا أن نرسل صاروخا الى القمر ٠٠ لماذا ؟ لأن نيوتن ، بنى تصـــوره للكون على المسطحات ٠٠ على نفس الأساس الذى أقام عليه اقليدس هندسته فاذا سار ضوء ، فلابد أن يسير فى خط مستقيم ٠٠ وسرنا على هذا الظن ٠٠ لكن فرعا من فروع فكرة اينشتين أن أشعة الضوء تسير مقوسة ٠٠ منحنية ٠٠ قد لا نرى هذا على المساحات الضيقة ٠٠ لذلك ففكرة نيوتن فى الجاذبية وفكرة اقليدس تصدقان على المساحات الأرضية المحدودة ٠٠ لكن لما ننتقل الى المسافات الفلكية ، نجد الأمر يختلف ، فكونى أنى أنا أدركت ؟ كيف يكون الخط منحنيا ؟ هنا على رأى برتراند رسل : لا تحاول أن تتصور، لأنها كلها أفكار رياضية ٠٠ يعنى نفس اينشتاين وغيره ٠٠ كيف جاءوا الى هذه الحقيقة العلمية ؟ جاءوا اليها من حيث هى تصور رياضى ٠٠ ثم طبقوها ٠٠ انك اذا أردت أن تتصور كيف يكون خط الضوء منحنيا ؟ فلن تستطيع ٠٠ لأن تصوراتك وليدة هذه الأرض وما عليها ٠٠ أنت لا تتصور الا ما رأيته ناضجا مما رأيته ومما خبرته ٠٠ وأنت لم تخبر خط ضوئى بكذا مليـــون سنة ضوئية ٠٠ ولذلك لا تستطيع أن تتصوره ٠٠

ان عبقرية اينشتين وغيره من هؤلاء العلماء ٠٠ أن يتصور رياضيا ٠٠ ولذلك فى فلسفة العلوم هذه الأيام أضافوا : (التخمينات) الى (الفروض) ٠٠ كنا احنا حتى بعد أن انتهينا من مراحل التعليم ، كان تصورنا للمنهج العلمى أن أجمع معلومات وأبوابها وأصنفها وأفرض لها فرض يفسرها ٠٠ فاذا نجح يتحول الى قانون أو نظرية ، فاذا لم ينجح ، ابحث عن فرض آخر ٠٠ لكننا نسينا أمرا هاما من حيث ادراك الحقيقة ٠٠ وهو : البصيرة ٠٠ اللمعة ٠٠ كيف تأتى ؟ لا ندرى ٠٠ فاذا جاءت لمعة عقلية الى عقل بشرى كبير ، وبالطبع هى دائما لا تأتى من فراغ ، انه يكون معدا ٠٠ مشحون بالمادة التى سيلمع اللمعة العقلية أو يتم ذلك فى حدودها ٠٠ انها لا تأتى عن طريق التخمين conjecture ٠٠يصوغها رياضيا ، ولا يعرف كيف يتصورها ٠٠ المهم أنه يطبقها ، فاذا انطبقت يستطيع أن يبنى على أساسها ٠٠ فاذا بنى شىء ٠٠ انتهينا ٠٠ انهم فى ادراكهم للذرة النووية ، نجد أن أحـــدا ، يأتى ميكروسكوب ، لم يرى درة ٠٠ ولكنه يصور conjecture بدلا ما كانت فكرة الذرة زمان أنها صماء ٠٠ أيضا تصور ٠٠ فى الماضى كنا نقول

أن الذرة أبسط الأجسام ، والذرة جسم مصمت بسيط ، لا ينفذ منه ٠٠ كذا ٠٠ الى آخره ٠٠ هل رأينا هذا الحد الأدنى ؟ كلا لم نره ٠٠ وانها فكـــرة عقلية ٠٠ اننى اذا حللت ثم حللت ٠٠ فلابد أن أصل الى جزىء ٠٠ هو حد أدنى لا يحلل ٠٠ طيب أين هو ؟ لم يره أحد ٠٠ مثل النقطة فى الهندسة ٠٠ ما هى ؟ هى ما ليس له أبعاد ٠٠ لكن هناك شىء فى الدنيا ليس له أبعاد ؟ أبدا ٠٠ هذا تصور رياضى تبنى عليه ، لكن لا تبحث عنه على الأرض ، لأن كل ما فوق الأرض له أبعاد ٠٠

التصورات التى من هذا النوع بنيت عليها علوم ، لكننا كنا غافلين عن أهميتها ، فدخلت كجزء على المنهج العلمى ٠٠ وعلى سبيل الاستطراء ٠٠ هناك عالم هندى كبير لا أذكر اسمه الآن ، له مايقرب من أربعمائة «تخمينه» رياضية conjecture ، وأنا أعلم علم اليقين أن هذه التخمينات التى تحولت اليها رسائل دكتوراه فى الولايات المتحدة وانجلترا ٠٠ الرجل لديه المخ الذى يلمع بالرياضة انه يضع معادلة ٠٠ تنطبق كيف ؟ ينطبق عليها ايه؟ انها جاءته كـ (تكوينة) (تركيبية) أعطاها صياغتها الرياضية ، ثم يأتى طالب فى رسالة دكتوراه يحاول أن يتبين حقيقة هذه المعادلة أو هل هى (تخمينة) مما يصح للتطبيق أم لا ؟ فكثيرا جدا من تخميناته وجد أنهـــا بالتحليل ، وجد أنها تخمينات صادقة ٠٠

التخمينات التى من هذا النوع كثيرة جدا ٠٠ لا نريد الاستطراد أكثر من ذلك ٠٠

هذه هى الفكـرة الرابعة ٠٠٠

جاء القرن العشرين هذا ، وفتح أبوابه بحادثة العرب العالمية الأولى ٠٠ أما ما بين الحرب الأولى والثانية ٠٠ أى من ١٩١٨ ـ ١٩٣٨ ، كانت هناك ارهاصات للعالم الجديد ٠٠ ارهاصات تبدت فى بعض الثورات والحروب الأهلية : ثورة روسيا ، الحرب الأهلية فى أسبانيا ٠٠ الفاشية فى ايطاليا، النازية فى ألمانيا ٠٠ الخ ٠

لما انتهت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ ، بدأ العالم حقيقة عصرا جديدا ٠٠ ونحن لا نزال حتى يومنا هذا نتخبط فى تطبيق هذه الأفكار الكبرى

٠٠ فمثلا : كيف يقام الحكم ؟ ما العلاقة بين الحاكم والمحكوم ؟ كيف تكون الحرية ؟ كل هذه تفريعات لا نهاية لها لا اجابة محددة لها ٠٠ انظر الى صور الحكم وكم هى متعددة ٠٠ تعدد الصور هذا بمثابة بحث عن صورة ملائمة ٠٠كل واحد يحاول يجرب : هذه جمهورية برلمانية وهذه جمهورية رئاسية، وهذه سلطنة٠٠ الخ٠٠ الى أى حد يكون الشعب حرا ؟ مامعنى الحرية ؟ لقد اختلفنا ٠٠ منا من يقول انها حرية الفرد ، ومنا من يقول انها حرية المجموع حتى ولو ديس على عنق الفرد ٠٠ الاقتصاد : ما صورته ؟ لا توجد اجابة واحدة متفق عليها ٠٠ لا زلنا نتخبط ٠٠ ونبحث ٠٠ فما معنى هذا ؟ معناه محاولة الاجابة ٠٠ الوصول الى شكل نستقر عليه فى النقاط الأربعة التى أفرزت فى القرن الماضى ٠٠

اذن نعود الى ما قلته ، أن القرن العشرين قد جاء بثورات كبرى : ثورة اللون مثلا : (العصر الفيكتورى) فى القرن ١٩ ، كانت السيادة للـــون الأبيض وكان هناك تكليف للون الأبيض أن يحضر العالم ويثقف العالم ، انه قدره ٠٠ White man's burden ٠٠ الآن هناك ألوان أخرى : أسود وأصفر وغيره ٠٠ كل منها يقف للابيض قائلا : على رسلك : لست وحدك !

ومع هذه الثورة ، جاءت ثورة الثقافات ٠٠ فمع وحدانية اللون ، كانت هناك وحدانية الثقافة ٠٠ الثقافة هى ثقافة الرجل الأبيض ، فاذا أردت أن تعرف : كم أنت مثقف ، فما كان عليك الا أن تنظر : كم أخذت من ثقافة الرجل الأبيض ؟ فلما تحررت الألوان ، تحررت الثقافات ٠٠ كل لون له فنه وأدبه ، ولغته وموسيقاه ٠٠

لقد استطردنا كثيرا ٠٠

نعود الى البداية ٠٠ فى العشرينات ، كان الرواد الأوائل ينقـــلون الينا هذه الأفكار الجديدة ٠٠ كل فكرة كنا نسمعها للمرة الأولى ، أنت تسألنى ممن تعلمت ؟ أجيبك بأنى كنت أقرأ كل ماكتب رواد الثقافة العربية الحديثة فى مصر ، كما كنت أقرأ أيضا لرواد الثقافة فى انجلترا وخاصة على يد فريق Bloom Sburg ٠٠ من هنا تكونت على هذا النحو ٠

مدرسة المعلمين العليا :

ـــ هل كان اختيارك لمدرسة المعلمين لأسباب معينة أم أن المسألة كانت « صدفة » ؟

● والله لسبب كبير ٠٠ وآخر صغير ، ولو كانت الصدف قد انحرفت قليلا ، لانحرف الاختيار ٠٠ أما السبب الكبير أن تصورنا فى عائلتنا كان تصور موظفين ٠٠ بلدنا بالذات (ميت الخولى) ، كان هناك توجه عام نحو التعليم فيها بدرجة ظاهرة ، والذى يتعلم ٠٠ يتوظف ٠٠ ولا يعود الى البلد الا زائرا ٠٠ ففكرة الوظيفة ملات رؤوسنا ٠٠ فما هى المدرسة أو الكلية أو المعهد الذى يضمن لنا وظيفة ؟ انها المعلمين ! ولذلك فى سنة حصولنا على البكالوريا دخلنا ١٥٠ طالبا ، وأكثر من مائة من أوائل البكالوريا دخلوا المعلمين العليا ، لأن التصور الذى كان عندى كان لدى غيرى وهو ضمان الوظيفة ٠٠

فى السنة التى دخلنا فيها المعلمين كانت هى السنة التى نشأت فيها الجامعة بشكل جديد ، انجذب اليه أفراد قليلون ، لأنها كانت مجهولة ، وخصوصا كلية الآداب وعلى سبيل التفكه ٠٠ كنا نسأل : ماذا تخرج هذه الكلية ؟ يقولون : أدباء !! ونحن كنا نريد وظيفة ٠٠

هذا هو السبب الكبير ٠٠ أما السبب الصغير فانه يبين لك كيف تنحرف حياة الانسان بصغائر ٠٠ كان لى ابن خال مدرس علوم بالاسكندرية ٠٠ وهذا كان يعرف حقيقة : كيف يعيش ، عندما يأتى صيفا الى القاهرة حيث كان يأتى فى تصحيح الامتحانات العامة ، ينزل فى لوكاندة نجمة ، ويلبس ملبسا فخما ، ويجلس على المقاهى الغالية فى وسط البلد ٠٠ فلما كان يزورنا ويأخذ واحدا منا معه فى واحد من هذه الأماكن ، كان ينبهر بحياته ٠٠ وهذا مدرس خريج معلمين عليا ٠٠ اذن هو الطريق ٠٠ أفتكر هذا كان له تأثيرا أكيدا على اختيارى للمعلمين العليا ٠٠

ـــ ما تشخيص سيادتكم للصراع الذى كنا نسمع عنه دائما بين الجامعة والمعلمين العليا ؟

● المعلمين كان يدخلها تقريبا كل أوائل البكالوريا (الثانوية العامة) . فلما رأت كلية الآداب أن المتقدمين اليها قليلون ، بـــل ان كثيرين منهم لم يكونوا على المستوى المطلوب بدليل أن كثيرين من الدفعات الأولى أرسلوا فى بعثات الى أوربا ولم يستطيعوا الحصول على الدكتوراه وعادوا ·· أين هذا ممن كانوا بالمعلمين ·· فكلية الآداب فتحت الأبواب لمن يشاء أن يحول لها من مدرسة المعلمين (وكذلك العلوم) باغراء شديد جدا ·· وقليلون جدا ذهبوا ·· أذكر منهم : د· عباس عمار ، وزكى محمد حسن ·· كانا زميلان لى وذهبا ·· الفكرة كانت غامضة بالنسبة لى ولذلك لم أفعل مثلهما ··

من الاغراء الذين قدموا أن الذى يحول ! يستطيع أن يبقى فى المعلمين، وفتحوا فصول ليلية لذلك ··· فهؤلاء تنبهوا وقالوا لنأخذ الاثنين ·· لكن لسيطرة فكر الوظيفة لدينا ، سرنا فى طريق المعلمين ·

— طب سيادتك مارست التدريس كم سنة ؟

● والله نحو عشر سنوات ··

— هل لديك انطباعات معينة يمكن أن نسمعها عن خبرتك التعليمية فى المدارس ؟

● نعم ·· لحسن الحظ أو لســـوئه ·· كنت من بين الذين اختيروا للتدريس فى مدارس الأوقاف الملكية ، فما هى هذه المدارس ؟ كانت هناك خمس مدارس ثلاثة ابتدائى واثنين ثانوى ·· هنا بالقاهرة ، ينفق عليها الملك أولها ادارة خاصة فى القصر الملكى ·· ولذلك ·· اعتزازا لانتمائها للملك ، كانوا يختارون مدرسيها بالتكليف ممن يعتقدون أنهم ممتازون ·· فضلا عن أننا عندما تخرجنا ، كانت هناك الأزمة الاقتصادية العالمية الطاحنة سنة ١٩٣٠ ·· لذلك لم تكن هناك ولا وظيفة ·· فلم يكن أمامنا مجـــال للاختيار ··

بعد ذلك ضمت هذه المدارس الى وزارة المعارف سنة ١٩٣٥ ، فانتقلنا طبعا معها الى هذه الوزارة ، فخبرت بذلك نمطين مختلفين جدا جدا أحدهما

عن الآخر ٠٠ والى الآن لا أستطيع أن أجد الجواب الصحيح ٠٠ عما كان هو الأفضل ٠٠ أما مدارس الأوقاف ، فكانت تختار الطـــلاب ٠٠ وتختار التلاميذ ٠٠ من الممتازين أيضا ٠٠ وكانوا يكلفونهم بأعمال شاقة كثيرة بحيث لا يجد الطالب لديه فراغا من الوقت ، وكانوا يحاسبون المدرس على نتائج الطلاب حسابا عسيرا ٠٠

فلما تأتى السنة السابقة على الشهادة ، كانوا لا ينقلون الا الطالب المضمون نجاحه ، ولذلك كان القصر الملكى بنفسه حريص على أن نتائج هذه المدارس تكون ١٠٠٪ الا اهتزت كرامة الملك ، تصور الطاحونة التى كان ينبغى أن تعمل ٠٠ على أى حال كانت لكى تصل الى هذه النتيجة التى اذا لم تحدث فكان هذا هو نهاية العالم ٠٠ فكان الأوائل كانوا منها دائما ٠٠ وكان يقال أن هؤلاء تفوقوا بالشغل الشاق ، لكنهم عندما انتقلوا الى الجامعة كثير منهم فشلوا ٠٠ هل كان هذا حقيقة ، أم حقد من المدارس الأخرى ؟ لا أدرى !

أما مدارس المعارف فكانت تسير بهوادة ، طبعا مع الاختلاف الشديد بينها فى ذلك الوقت وبينها فى ذلك الزمن ٠٠ ولكن على أية حال ، لم يكن هنالك حقدا (الكرباج) وراء الطالب أو وراء المدرس ٠٠٠

الآن أقول ان مدارس المعارف أفضل ، ولو كانت النتيجة أقل لأنى أميل الى أن تترك مساحة كافية لجهد الطالب الذاتى وحريته ٠٠ لفطرته وميوله ٠ لا يصب فى قالب من حديد ٠

البعثة :

سافرت سنة ١٩٤٣ فى بعثة الى لندن قررت هناك مختارا حيث كان باستطاعتى أن أحصل على اعفاء من الـ (الدرجة الجامعة) ، ولكنى أعلم أن الدكتوراه لا تفيد كثيرا ٠٠ أنها بحث لا تضـــيف كثيرا ٠٠ ان الذين يذهبون الى انجلترا لا يمكنهم نظام ٠٠ « الرسائل » من الاستفادة كثيرا ٠٠ الفائدة تكون فى دراسة المقررات ٠٠ لقد ذهبت كبيرا فى الســـن ٠٠ فى سبتمبر ٠٠ قلت لرئيس القسم أننى سألتحق بالـ B.A. فى الصيف ٠٠

قال : لن تستطيع ·· قلت له ·· اننى كبير فى السن ·· قال : ولو ·· أننى نفسى لا أستطيع ·· أنها مسألة عدد من الكتب مقررة لن تسمح لك هذه الفترة باستيعابها ·· وبالفعل ، كان مقررا علينا فى الفلسفة ١٤ كتابا مرحبا ·· وكانت الامتحانات شاقة ·· تفصيلية · كان يجىء سؤال مثلا كما يلى : ما هى أهم النقاط التى وردت فى الفصل التاسع من كتاب الأحلام لأرسطو ؟ · فاما أن تكون حافظا لهذا الكتاب ، والا فلن تستطيع اجتياز هذا الامتحان ·· كان يسأل فى تفصيلات الكتب ·· أسئلتنا هنا مقالات ·· ومن هنا يمكن اللف والدوران ، أما هناك فهى تحصيل التحصيل ·· لكن ربنا وفقنى وحصلت على درجة first degree honot ولم يكن يحصل عليها الا عدد قليل جدا ·· فاعتبرت حاصلا على الماجستير ، وكان لى الحق فى التسجيل للدكتوراه فورا ·· فسجلت بالفعل ·· واخترت أولا موضوعا عن أفلوطين بالاسكندرية ، فاخبرنى الأستاذ بأنه غير كفء للاشراف على هذا الموضوع والأفضل أن يدرسه فى مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بنفس جامعة لندن ·· لكننى لم أرغب فى الدراسة بهذه المدرسة لتعدد وتنوع طلابها حيث لم أرغب فى هذا ، فقلت : أغير الموضوع ، فكان أن اخترت موضوع self determination (الجبر الذاتى) ·· ثم عدت الى الجامعة المصرية ···

التدريس بالجامعة :

ـــ عندما عدت الى الجامعة وبدأت تتبنى اتجاه الوضعية المنطقية ·· هل صادفتك عقبات ومشكلات على المستوى العملى ؟

● ·· والى الآن ·· بس أنا كنت فى بداية حياتى ملىء بالحماس لدرجة لا أستطيع أن أصفها لك ·· فلو كان كل مصر ستقف لى بالحراب ، كنت أصر على تبليغ الفكرة ··· ومن حسن الحظ ، أنهم أعطونى مادة المنطق التى لم أكن فى ذلك الوقت متخصصا بدرجة الدكتوراه فيها ، اذ لو تأملنا موضوعها ، فهو أدخل فى باب الأخلاق · ·لكنهم أرادوا أن يتخلصوا من هذه المادة ، فقلت : أهلا وسهلا ··

وأى مادة كنت سأدرسها ، كنت سألتمس فيها الطريقة التى أومن

بضرورة عرضها ، طبعا مع الالتزام بالنقاط التى كانت المادة تحتوى عليها فى العادة ..

الفكرة فى كلمتين .. لا أدرى لماذا المعارضة ، وخاصة هنا فى العالم العربى ، نحن نشعر بمسئولية الكلمة .. بمسئولية الجملة ، حتى فى المجال العلمى .. يعنى لو كان الأمر أديب يزخرف ، فليزخرف أدبه ولكن فى المجال العلمى .. لا .. ان العبارة التى تقولها لابد أن تكون قابلة لأن تخضع لمحك التجربة ، ولمحك النقد الموضوعى للاخرين ، بحيث لا تكتب هكـــذا على مزاجك .. اذا أردت أن تكتب على مزاجك ، أكتب قصيدة شعر ، ونحن منحصرون فى منهجنا بدائرة العلم ، ولا شأن لنا ببقية أنواع الكلام وهى كثيرة .. اذا أردت أن تكون محسوبا على العلم وعلى التعبير العلمى ، فلابد أن تخضع لشروط العلم ، وأبسط شرط فيه ، أن يكون الزعم خاضعا لأن يحقق : اما يقبل أو يرفض .. فما لا يقبل التحقيق يرفض .. لأنه لا يملك جواز المرور ..

واذا أردت أن تعرف كم نحن محتاجون الى هذا النهج العلمى ، أنظر فى المذكرات الرسمية ؛ وحتى فيما يكتبه الأساتذة ، البيانات ، الخطب .. فلا وعى هناك بأنها غير علمية فى تعبيرها .. هذه مسألة طويلة .. عريضة جدا .. ياه ... وللان يسألونى : هل مازلت بـ أقول : نعم ، فيقولون أن وطأتها خفت فى الغرب ، لكن جوابى ، أن ذلك تم هناك لأنها تشكلت بشكل جديد . ولكن فكرة اللغة التى تستخدمها لأداء الفكر ماذا ينبغى أن تكون خاضعة له ؟ هذه مسألة لا ينتهى زمانها .. أنها فتح من الفتوح .. أن يتبنه الفكر فى هذه الفترة لذلك ..

ـــ والغريب ، أن (التحليلية) فى السنوات الأخيرة قد غزت الفكر التربوى بشكل ملحوظ . .

● والذين كانوا يتهكمون على فى الجامعة .. الآن أسمع أن معظم الرسائل من هذا المجال .. !!

ـــ هل نستطيع أن نقول أنك قد استطعت أن تحفر فى الفكر الجامعى فى مصر اتجاها يشكل مدرسة لهذا اللون من الفكر ؟
(الدراسات التربوية)

● أعتقد ذلك ، ولكن بتحفظات ·· فهناك من أخذوا هـــذا الخط وتشبعوا بى ، ولكن من غير الايمان بضرورة تشكيله بالطريقة التى تنتقل به من داخل أسوار الجامعة ، الى خارجها · طبعا اذا انتقلت بهذا الفكر الى خارج أسوار الجامعة يلزمنى نوع آخر من العرض ، واذا مرة كتبت مقالا أغضب كثيرين ·· عن (الفلسفة خارج الأسورا) ·· هنا منهج هذا الاتجاه من أهم ركائزه : أن الفلسفة منهج بغير موضوع ! مامعنى ذلك ؟ معنـاه أنك فاتح معمل تحليل ·· معمل التحاليل : لديه أجهزة تحلل ·· تحلل ماذا؟ تنتظر المادة التى تجىء لك : دم ·· بول ·· أجسام ·· الأجهزة قبل ان تجيئها المادة ، مستعدة للتحليل ، فالفلسفة فى تصورى ·· وفى تصـــور سقراط ـ لأن التصويرين متشابهان جدا ـ هى نظارة ·· النظارة عندما أشتريها من (النظراتى) لا تقل لى : هذه النظارة لابد أن تقرأ بها الكتاب الفلانى ، أنها طريقة رؤية ·· بماذا ترى بها ؟ هذه مسألة تترك لك ···

هذا المنهج كل همه أن يجعل الجملة صالحة أن تكون علما ، وهذا لا يتأتى لها الا اذا راعت مواصفات القول الموضوعى : ماذا شروطه ، فاذا رأينا جملة ·· دخلت بها وجدانيا توسائل عاطفية ·· نضبطها ··

فلكى يصبح لمدرسة الفلسفة جدوى « فلابد من تدريب عملى للطالب » فضلا عن المقررات التى يتلقاها ·· تدريب على كيف : يحلل الفكرة ؟ انه لن يخرج عن مجاله ، لأن الفلسفة كلها بها عنصر التحليل واضح جدا ·· كل ما هنالك أشد انتباه الطالب الى المنهج الذى يستخدمه الفيلسوف ليحلل الأفكار ·· هنا يخرج مسلحا ، فاذا كان لديه شىء من الموهبة التى يشارك بها فى الحياة الفكرية العامة ، سيجد وفرة من الأفكار الغامضة ، الناس يدورون فى دوامة من الأفكار الغامضة ، وهم لا يشعرون ، ويتعاركون حول أفكار هى غامضة ، لو طلب منهم علميا أن يحددوا ماذا يريدون بها ، لن يستطيعوا الجواب ·· فهنا فرصة هائلة لدارس الفلسفة ليخل بقلمه وبفكره لتوضيح المعانى ··

لو تأملت فى الكم الأكبر مما أكتبه فسوف تجد أنه (توضيح معان) !

ـــ كيف كانت العلاقات بينك وبين الزملاء من الأساتذة فى الجامعة ؟

● حقيقة كان لها وجهان : الوجه الأهم هو أننى بسبب انجذابى نحو بيتى دائما · فأنا الآن لا أخرج من البيت ·· وكنت طوال حياتى أخرج مضطرا الى العمل · ولكنى أحب البقاء فى البيت · ·فكنت اذهب الى الجامعة بمقدار ما هنالك من عمل بالضبط ·· أذهب فى الدقيقة الأولى وأخرج فى الدقيقة الأخيرة الى البيت ، فكانت الفرصة كبيرة أمامى كى أكون محايدا ·· فلا تنتفتح أمامى المشكلات التى تكون موضع عراك بين الزملاء ·· ولكن لا يخلو الأمر برغم هذا من أننى وجدت مقاومة شديدة جدا ، ظاهرة أحيانا وخافية أحيانا أخرى ·· وتشويه سمعة كان يخفى أحيانا ويظهر أحيانا على أساس أننى سائر على الشاطىء غير المشروع للفلسفة كما يتصورون ·· كان هذا يحدث علنا أحيانا عند من يشجعون على الاعلان ·· وخفاء أحيانا أخرى عند من لم يكونوا يشجعون ··

ـــ أنا كشاهد على الفترة من ١٩٥٥ ـ ١٩٥٩ ، لا أذكر أنك ولو مرة واحدة ذكرت أمامنا نحن الطلاب زميلا لك بسوء ، على عكس ما كان يحدث من بعض هؤلاء تجاهك حيث كانوا يغمزون ويلمزون عليك وكنا نفهم أنهم يقصدونك بهذا ·· ونحن كطلاب فى ذلك الوقت ، بل وفى كل وقت دائما نحترم أكثر ، هذا الأستاذ الذى يحترم زملاءه لأن هذا جزء مما يجب أن يكون عليه أستاذ الجامعة ··

·· وفى النهاية نشكر لأستاذنا هذا الجهد الذى كلفناه ·· لكن هكذا طالب العلم منهوم لا يشبع ···

أستاذ الجامعة ودوره خارج أسوارها :

ـــ ان هذا يجعلنا ننتقل الى قضية أخرى يطرحها البعض ، وهى أن أستاذ الجامعة عندما يترك أسوارها ويكتب فى الصحف والمجلات العامة ، يتصورون أنه خرج عن وظيفته الأكاديمية ، وأن كتاباته لعامة الناس تخرجه عن العمق الأكاديمى ليغرق فى التبسيط الشديد ·· ما رأيك ؟

● نعم هذا صحيح ·· ولكن الأستاذ يستطيع أن يلتف فقط فى نصوصه الأكاديمية ، فيصبح أستاذا فى الجامعة فقط ، ولكنه ـ أى مثل

د٠ زكى - لم يلغ وظيفته الأكاديمية ، وانما أضاف اليها ٠٠ مثل واحد عنده ورقة بعشرة جنيهات ٠٠ اما أن تظل معه هكذا ، أو يفكهـــا جنيهات ٠٠ الاثنين عشرة جنيه ، لكن هذه مجمدة ، وتلك فكة ، فاما أن تأخذ النص بأكاديميته وتحلله أكاديميا ، فلا يسرى فى السوق ٠٠ اذا أردت أن يسرى فى السوق ، فلابد من أن تفكه ، لأن الدكاكين التى تتعامل معهـــا تتعامل بالخمس قروش والعشرة ٠٠ وهكذا ٠

الأكاديمى الذى يعرف كيف ينتقل بمادته الى جمهور المثقفين هو لم يلغ أكاديميته ، وانما عرف كيف يذيبها ، الذوبان الذى يجعلها شرابا يمكن شربه ٠٠ طه حسين عندما كتب حديث الأربعاء ٠٠ أنها من أحسن كتبه فى النقد الأدبى ٠٠ وهى تجميع لأحاديثه فى جريدة السياسة : هل ترك أكاديميته أبدا ، وانما عندما عرض موضوعه ، اصطبغ طريقة فى العرض لا يملها الطبيب أو المهندس الذى يقرأ ، فاذا انتقل بهذا الموضوع الى طلابه فى كلية الآداب ، فربما كثف كلامه بأكثر من ذلك ٠٠ فهناك كسب وليست هنـــاك خسارة ٠٠٠ أنها قدرة تضاف ٠٠ لا قدرة تحذف ٠٠٠

وقد تحدث د٠ زكى بعد ذلك عن مسائل تخص طريقته فى الكتابة ٠٠ فهو لم يكتب مسودة لما يكتب سواء رسالة أو بحثا أو مقـالا أو كتابا ٠٠ ولا يكاد يشطب كلمة مما يكتب ٠٠٠ ثم تحدث عن كيفية تغلبه على الحالة التى ظل يعانى منها فى السنوات الأخيرة ، وهى الضعف الشديد فى النظر ، الى الدرجة التى يرى فيها ما يكتبه من كلمات ٠٠ مجرد أشباح ٠٠٠ وحاليا يمسك عدسة بيده الشمال والقلم بيده اليمين حتى يمكن له أن يرى السطر ٠٠٠

الجامعة والسياسة :

ـــ اذا سمح لنا أستاذنا الجليل ، هنا لك علامة استفهام تلح على ٠٠ فعندما التحقتم بالجامعة فى أواخر الأربعينات ، كان المجتمع الجامعى مواكبا للمجتمع المصرى ، يصطخب بكم كبيرا من صور الصراع السياسى والاجتماعى ٠٠ فأين كان د٠ زكى نجيب من هذا ؟

● الحقيقة ٠٠ لك حق أن تسأل هذا السؤال ، ان السياسة لم تمسنى

الا كمواطن يتأثر بالعالم الذى حوله ثم لا يتخذ خطوة ايجابية بعد ذلك ·· هنالك فرق بين موقفين : أن تحصل الفكرة أو تتأثر بالانطبـــاع المعين أو غيره ·· هذا خطوة ·· ثم هناك خطوة أخرى وهى أن تنفعل بهذا فتتخذ هذا الاجراء أو غيره ، وهذه الخطوة قد تأتى وقد لا تأتى ·· يختلف الناس فى هذا فأنا مثلا فى نواحى الفكر العام من النوع الأول ·· أى أحب الأفكار ·· عقلى شوكة رنانة لاقطة للافكار ومغربلة لها ونافذة لها ، وأنسج منها القماشة التى أريد أن أنسجها ، وأحب أن أتجه بها نحو الناس ولذلك تجد كتاباتى كلها متجهة نحو هدف ، هو الحياة الجديدة ··

لكن فى المجال السياسى أتلقى وأتشرب وأقف عند هذا الحد ·

ـــ هل نفهم من ذلك أنك لم تتعرض فى فترة ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، خاصة وأنك كنت صاحب فكر معين يختلف مع الفكر السائد ·· لم تتعرض الى أى مضايقات سياسية ؟

● كلا ·· حقيقة لم تحدث لى مضايقات ··

ـــ حتى عندما ترأست تحرير مجلة (الفكر المعاصر) والتى اتجهت بها اتجاها يختلف عما ساد فى مجلة الطليعة ، ومجلة الكاتب ·· وعموما·· كان التيار اليسارى هو السائد ···

● قبل صدور العدد الأول ، أعلنت فى الصحف أنها « مجلة لا تعرف اليمين واليسار ، هى للفكر الجيد ·· ، فقامت ضجة : لا ، نحن بلد يسارى ·· لكن لم تأت لى معارضة من الجهة المسئولة ·· الا ربما مرة ·· لم تكن ذات أثر من وزير الثقافة ·· لماذا لا تخدم المجلة أغراضنا ؟ فقلت : والله أنا لا أخدم الا الفكر ·· اذا كنتم تريدون غير هذا ، فتستطيعون أن تبحثوا عن رئيس تحرير غيرى ···

أما كيف سرت بالمجلة وسط هذه التيارات التى تقول عنها ، فوالله (بقدرة قادر) ·· أنا هاوى ·· بمعنى أن لى هدف ·· فاذا وجدت الأداة التى تخدم هدفى زى مجلة ، أوحب ، وهذا هدف نبيل ·· ان هذا البلد لابد

أن يستنير ٠٠ فما هى المصابيح التى تنير ؟ ان عصور التنوير كلها محورها واحد ، وهو مزيد من المعرفة ٠٠ ومزيد من زمام العقل !

— ثم توجهنا الى مفكرنا بسؤال عن كتاب « مسائل فلسفية » الذى اشترك معه فى تأليفه لطلاب الثانوية العامة د٠ نازلى اسماعيل ، ود٠ عزمى اسلام ، فقال ٠

● لقد جاءنى د٠ مصطفى كمال حلمى داعيا لى أن أشترك فى تأليف الكتاب ٠ وفقا لمناهج التى استجدت فحاولت أن أعتذر له ٠٠ المهم جمعنا عدد كبير من المشتغلين بالفلسفة فى الجامعة وفى الوزارة لنناقش خطة العمل ، وأنا أعددت خطة ، بسرعة البرق ، الخطة ووفق عليها ألتى تتلخص فى ألا تبقى تاريخ متصل لأنه قال لى أن القسم العلمى سوف يشارك فى تعلمها ، فأنا قلت ، أحنا نأخذ مسائل تعبر عن العصور الفلسفية ويستسيغها أى متعلم ، أدبى أو علمى ٠٠ كان جيدا جدا ٠٠ لكن لما ألفت على أساسه الكتب ، أنت تعلم أن أصحاب الاختصاص لا يستطيعون دائما أن يتخيلوا الصورة التى تعرض بها المادة للفئات المختلفة ، مثلا أنا أحيانا بالنسبة للمقالات التى أنشرها فى الأهرام أضع فيها فلسفة ، لكنها تناسب القارىء عادة ، فلكل مقام مقال ، لكنهم فى الكتاب المشار اليه ، لم يحسنوا العرض، ولكن ماذا تصنع ؟ لقد هوجمت هذه الكتب ، ان المادة العلمية التى بها من حيث الصواب والخطأ لا أحد يستطيع أنيقول عليها شيءالمؤلفون متخصصون، الصواب والخطأ لا أحد يستطيع أن يقول عليها شيء المؤلفون متخصصون ، ومنهم من تعلم بالسربون ، ولكن المسألة أيضا ، هى مسألة الـ sence الاحساس بالطريقة التى تعرض بها المادة للفئات المختلفة يعنى لو جاءتنى مجموعة من الأطباء والمنهدسين لأتحدث معهم فى الفلسفة ، فلابد أن أشكل الكلام ليناسبهم ٠٠ سوف تكون المادة هى هى ٠ ولكن الطريقة تختلف ٠٠ نحن فى هذا كمثل الصائغ لديه قطعة ذهب ، تقول له : اصنع حلقا ، اصنع منها أسورة ، يصنعها لك كما تريد ٠ ٠المادة هى هى ، والصياغة يجب أن تناسب المطلوب ٠ ٠لكن مع الأسف الكتب كما خرجت الى التنفيذ — فى رأيى — سيئة جدا !

اذن فللاستاذ العالم حق فى نقده (فى الدراسة التى نشرت بالعدد

الأول) أما اذا كان يهاجم الكتب بسبب النظريات الاجتماعية التى يقول بها ، فهذا هوس ٠٠ دول ناس ٠٠ محمود أمين العالم أنا احترمه جدا ، لقد امتحنته فى الماجستير ، وأقدر أقول أن رسالته كانت من أحسن الرسائل التى رأيتها ، كانت جيدا جدا ، وأعلم أن عقله جيد ومستنير ، ولكنه متسلط عليه فكرة مسبقة ، وأعوذ بالله ممن تركبهم أفكار مسبقة ٠